الفصل الخامس

القاهرة.. الطابع الإفرنجى

وأغلب أولاد البلد فى القاهرة يقبلون على شراء البنطلون إذا قدروا على دفع ثمنه، يقتبسونه ويقتبسون معه نمط الحياة الإفرنجية. وكلمة «أفرنجى» هى المقابلة لكلمة «بلدى». إنها النطق العربى لكلمة «فرانك» وهى اسم قبيلة جرمانية استوطنت فرنسا فى القرن الخامس وأطلق فى الشرق على الأوربيين عامة، فهى تعنى الآن فى موضوعنا كل ما هو ليس بمصرى، أو كل ما هو أجنبى. وكان التفرنج يعنى فى البدء - علاوة على لبس البنطلون - الرقص الأوروبى على أنغام الموسيقى وحفلات الكوكتيل واللوحات الزيتية فى حجر الاستقبال

بـدلاً من لافتات الخط العـربى وأثاث من طـراز لـويس الخامس عشر - يصنعه للزبون المتفرنج نجـار بلدى ! - ويعنى فـوق ذلـك أيضًـا إيـداع النقـود فى بنـك لا فى شكمجية كان هذا فى البدء، أمـا الآن فقد أصبحت جميـع هـذه الأشياء من صميم الحيـاة فى القاهـرة بحيث انقطع الإحساس بأنها من اختصاص الإفرنج.

والمتفرنج القـاهرى (وهـو مسلم فى تسع حـالات من حالات عشر) ينبغى التفريق بينه وبين «الخواجة»، وهذا لقب صيـغ فى الأصل ليـطلق على كـل من هـو مسيحى أجنبى وإن شمـل أحيـانًـا القبـطى: المصـرى المسيحى أيضًا. ويعيش المتفرنج القاهرى والخواجة جنبًا إلى جنب فى وئـام أشد من وئـام المسيحيين والمسلمـين فى قبـرص، إلا أن لكل منهما حسـابًا مختلفـا للآخـر. قد يكـون نمط حياتهما متشابهًا، ولكن «الخـواجة» الـذى كان من قبـل يتميز بسلطان اكتسبه إبـان هيمنة الغـرب المسيحى على أقدار العرب، قد خف الآن فى الميزان. وكلمة «خواجـة» ذاتهـا - وهى من ألقاب التكـريم فى لبنان - أصبحت فى

مصر تبطن معنى الازدراء، لذلك يفضل الأجنبى أن يكون النداء عليه «يا سيد» بدلاً من «يا خواجة» فإن كلمة سيد فى مصر الآن تعمل عمل كلمة «مستر» فى إنجلترا.

والطبقة الوسطى هى العنصر الحاكم على القاهرة الحديثة، فمن صفوفها خرج أولئك الذين يخططون العاصمة كما هى اليوم، ويرسمون لها أذواقها، ويقودون ثورتها. وقد انبثقت هذه الطبقة الوسطى حديثًا من الجماهير البلدية، وكان القرن التاسع عشر يكاد يولى من قبل أن يصبح للعامة من المصريين حق امتلاك الأرض، وكان كسر احتكار الأسرة الحاكمة للملكية العقارية هو منشأ الطبقة البورجوازية، والفروق بين الطبقات المائعة، والطبقة الوسطى آخذة فى النمو، وقد نحدس حجمها من نتائج احصاءين، فبينما لا يزيد عدد أصحاب السيارات فى القاهرة عن ٧٠ ألفًا نجد ما لا يقل عن ٦٠٠ ألف من سكانها بين موظف حكومى أو مستخدم، وفئة المستخدمين تشمل أناسًا قد وضعوا قدمًا - على الأقل - على أول سلم الطبقة الوسطى.

وتعيش الطبقة الوسطى موزعة فى كل الأحياء السكنية، ففى شوارع يغلب عليها الطابع البلدى بضجته ودكاكينه ولعب أطفاله بالكرة فى الطرقات، تتعالى عمارات تسكنها أسر متفرنجة، وإن بقى لها أقارب فى القرية أو فى المدينة. ولكن بعض المناطق يكاد يغلب عليها الطابع الإفرنجى. والزمالك هى أكثرها عمرانًا وأشدها افتقارًا إلى السمة الذاتية وهى تمتد مسافة ميل ونصف فى شمال «الجزيرة»، هنا تتبادل أشجار البوجانفيليا والزاكرندا والبوانسيتيا تزيين شوارع تقوم على جانبيها دور السفارات وأعيان القاهرة. أما الطرف الجنوبى من «الجزيرة»، فيعيش تحت جناح برج القاهرة ونادى الجزيرة، وكان هذا النادى فى وقت ما وقفًا على الموظفين الإنجليز ورجال الأعمال الأجانب، واليوم ورثه المصريون عنهم..

أما الروضة - الجزيرة الجنوبية - فهى أقل طولاً من «الجزيرة» بمقدار ميل ونصف وأقل منها أيضًا تعاليا، فإن عماراتها المزدحمة بالسكان لا يسعى إليها إلا لابسو

البنطلون، أما لابسو الجلاليب فهم الخدم والباعة، على حين أن الشاطئ الغربى للروضة تنسم مساكنه بالترف.

وفى أحد القصور المطلة على النهر كان يقيم باشا مصرى متزوج من سيدة يونانية، وبلغ من غرامها بالطب الفرعونى القديم أن خصصت له ثلاثة معامل. وفى إحدى المناسبات عارضها صديق ثرى قتله السأم يريد أن يملأ فراغه بشىء ما ولو كان شرًّا فتحداها أن تظهر قدراتها، فحبست عنكبوتًا سامًّا فى آنية زجاجية (برطمان) مع تمثال من الطين على هيئة هذا المستهزئ الساخر وأودعته بعضًا من شعره وأظافره. ولم يحدث شئ، ثم اضطرت الساحرة إلى السفر إلى سويسرا لبعض الأمور العاجلة، وبينما هى هناك وصلتها برقية تفيد أن صديقها هذا فى المستشفى على وشك الموت -فيما يبدو- بالسرطان فاتصلت من زيوريخ بالتليفون لتقوم بعملية إنقاذ، وأمرت خدمها بأن يقتحموا المعمل، فوجدوا أن العنكبوت الذى كان على وشك الموت جوعًا داخل البرطمان قد فرض طريقًا عميقًا داخل التمثال، ربما

سعيًا وراء قطع الأظافر، فأمرت الساحرة خدامها النوبيين بأن يغسلوا التمثال فى ماء النيل تحت ضوء القمر (وكان القمر لحسن الحظ مكتملاً) فما أن تمت العملية حتى شفى صديقها الضحية فى الحال.

والطبقة الوسطى غالبة أيضًا على الشاطئ الغربى للنيل عند محافظة الجيزة، تحيط هناك بإحدى مؤسساتها - وهى الجامعة - وكذلك غالبة هى على مصر الجديدة والمعادى، وكانت الضاحية الأخيرة خالصة لسكنى الأوروبيين، أما اليوم فإن العنصر المصرى شائع فيها..

وعسير عليك اليوم أن تجد من يتحمس للمصريين من الطبقة الوسطى، هم اليوم على غير ما هم عليه، وأنت إذا أعربت عن ازدرائك بقيم الطبقة الوسطى ستجد كل فرد من أفرادها فى القاهرة يوافقك على رأيك، هذا مع الاعتراف بأن التحمس لجماعة دون تفرقة بين أفرادها لا يخلو على أية حال من تحيز متفضل، فالذى يقول إنه متحمس لفصيلة من الكلاب لا يختلف عنه من يقول إنه متحمس للزنوج. والطبقة الوسطى فى

القاهرة - كالشأن بها فى كل بلد - هى منبت أفراد للأمة وهذا هو مبرر وجودها. وأشخاص رواية «الرجل الذى فقد ظله» - وتجرى حوادثها فى حى قاهرى - يصفهم مؤلفها فتحى غانم تعميمًا بأنهم قساة وأنهم جديرون بالسخرية والرثاء معا، ولكنهم شهود على القرن العشرين فى كل مكان، وليهنأ القارئ الأجنبى إذا لم يجد نفسه صورة أخرى من هذا الانتهازى المجرد من البطولة الذى جعله المؤلف بطل روايته. وهذه الرواية - ومعها كتابات أخرى عديدة - تعبر عن عقائد طبقة خلعت عنها قيم الماضى وأزياءه. وقد وصف فتحى غانم حادثًا بقى فى ذاكرته منذ طفولته كحادث هام، حين تحدث عن أبيه القروى الذى كان أول فرد فى الأسرة خلع الجلابية، فإن أباه هذا ذهب إلى طبيب ليمحو بالكى آثار وشم على يده، وكان الصبى يعجب بهذا الوشم وأحزنه أن تختفى عن يد أبيه رسم الثعابين والتروس، فلما كبر الصبى أدرك أن هذا الكى فى غير ضرورة هو رمز مأسوى لطبقة نبذت معايير قيم تقليدية من أجل قيم جديدة تكاد تكون غير مقنعة لهم بعد..

وسواء كان هذا التحول صوابًا أو غير صواب فإن تطلعات الطبقة الوسطى - على كل حال - هى التى تحدد للعاصمة رسمها، فذوق هذه الطبقة هو الفيصل: أى المبانى يهدم وأيها يبقى وأيها يقام. وتدشين انتصار الطبقة الوسطى على نظام الحكم السابق تمثل فى إنشاء كورنيش النيل بامتداد ٢٥ كيلو مترًا فقد ظل هذا المشروع موضع بحث طال سنين عديدة، ثم إذا به يتم تنفيذه خلال أسابيع قليلة، والآن يتمتع المصريون من جميع الطبقات بهذا الكورنيش الذى يعد حقًا رئة جديدة للعاصمة..

وتهيم الطبقة الوسطى بما هو ضخم، حديث، مريح، فها هو مبنى التليفزيون بطوابقه الثلاثين له إشعاع صورة الحياة عند الطبقة الوسطى لمن يملكون أجهزة التليفزيون أو لمن يتحلقون حول شاشته المقامة فى الميادين العامة. وقد قدمت قنواته خلال سنة ١٩٦٤ برامج ترفيهية وتثقيفية استغرقت ١٣٧ ساعة و١٦ دقيقة

وكذلك برج القاهرة، إنه خارج من أحضان الطبقة

الوسطى، وقد وصفته إحدى النشرات الحكومية بأنه من روائع المعمار الإسلامى الحديث، ولكنه يشبه سلة مهملات الورق، ضخمة متعالية، وفى سطحه مطعم دوار يتحرك على عجلاته الصغيرة تحرك قطار بطىء جدًّا بحيث أن الذين يتناولون فيه - وسط جو من المرح - وجبة كاملة (حساء - لحم - فاكهة) إذا رفعوا أبصارهم عن طبق «السكالوب على طريقة فيينا» رأوا أن المنظر قد تبدل كل التبدل، أصبحت الأهرام على يسارهم حيث كانت القلعة من قبل تلوح لهم كأنها لا تتحرك.